جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

بعنـــوان

شعر يوسف بن هارون الرمادى ت 403هـ
دراسة أسلوبية

إعداد الباحث
رياض حسين خليل إبراهيم

إشراف
أ. د. إبراهيم محمود عوض
د. هنـد رأفـت

مقدمـــة

"شعر الرمادى دراسة أسلوبية" رسالة تتحدث عن شاعر كبير، كان معاصراً للمتنبى، إلا أن الرمادى كان فى الأندلس؛ بينما كان المتنبى فى المشرق العربى.

من المؤكد أن التراث الأندلسى (شعره ونثره) يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة، لاسيما أن البحث المعاصر امتلك أدوات جديدة، وأفاد من مناهج عربية وغير عربية يعمل فى ضوئها عدد غير قليل من الباحثين فى مصر وخارج مصر.

والواقع أن شعر يوسف بن هارون الرمادى ت 403هـ يحتاج من الباحثين قراءات متنوعة عمد إليها بعض الباحثين، ولكن النظرة الفاحصة فى الدراسات التى تناولت شعر الشاعر – قد أثبتت حاجة ماسة إلى دراسة شعره دراسة مخالفة، أو دراسة تلقى المزيد من الضوء على إبداعه الشعرى، ذلك الشاعر الذى لقبه البعض بمتنبى المغرب، وقد اتجهتُ فى دراسة هذا الشاعر إلى الاستعانة بالرسائل البلاغية القديمة والحديثة للكشف عن قيمة شعر هذا الشاعر.

سبب اختيار الموضوع:

ينحصر السبب فى اختيارى لهذا الموضوع أن شعر هذا الشاعر لم يحظ بدراسات متعمقة؛ فقد تناول الباحثون أقرانه مثل: ابن هانئ وابن دراج القسطلى، بينما الدراسات عن ذلك الشاعر كانت جزئية مضمنة فى كتب ومقالات، فضلاً عن أنها لم تتناول الجانب البلاغى الذى أشرت إليه.

وقد يعزى السبب فى قلة البحوث عن الشاعر دون الشاعرين الآخرين، أن الشاعر لم يكن له ديوان مطبوع حتى ثمانيَّات القرن الماضى – فقبل ذلك التاريخ لم يعرف له ديوان باسمه، حتى جاء الأستا ذ/ زهير جرار وقد جمع أشعاره من بطون أمهات كتب التراث فى ديوان مستقل بعنوان "شعر يوسف بن هارون الرمادى".

ومن هنا أزعم أن هذا الموضوع لم يسبقنى إليه أحد من الباحثين؛ وإن كانت هناك دراسات تناولت شعر هذا الشاعر منها ما هو أكاديمى ومنها ما هو غير أكاديمى نذكر منها: فصول فى الشعر ونقده للأستاذ الدكتور/ شوقى ضيف، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للأستاذ الدكتور/ أحمد هيكل، من تاريخ الأدب الأندلسى للأستاذ/ الطاهر مكى، والرسالة الجامعية للدكتوراه المعنونة بـ"شعر الأسر والسجن فى الأندلس" للدكتور بسيم عبد العظيم.

تمثل الرسالة دراسة تطبيقية على شعر الرمادى وليس على ديوان الرمادى؛ لأن الديوان الذى بين أيدينا لا يمثل كل ما قاله الرمادى، لأن محقق الديوان جمع هذا الديوان من أمهات مصادر الأدب الأندلسى، حيث جاء الباحث بمقطوعة وردت فى كتاب الدكتور شوقى ضيف ومقطوعة فى "الجذوة"، ولذلك قد يصادف الباحثون قصائد أخرى للرمادى فى بطون الكتب المختلفة.

كان أول شىء فى الرسالة هو التمهيد الذى تحدثت فيه عن الحالة السياسية والاجتماعية، والحضارية التى كانت تعيشها الأمة الإسلامية فى فترة الخلافة فى ديار الأندلس، فتناولت فى الفصل الأول : بلاغة التراكيب وهو فى مبحثين: التبادل بين الخبر والإنشاء، والالتفات، وقد استطاع الرمادى أن يقوم بأمر التبادل بين قصائد الديوان بين الخبر والإنشاء وقد خرج بالخبر والإنشاء عن غرضهما الأصلى، إلى أغراض بلاغية مثل التمنى، النفى والاستنكار ، والتعجب.

أما الالتفات: فقد تحدثت فيه عن مفهومه من الناحية البلاغية، وهل ينضوى الالتفات تحت علم البيان أو البديع؟ وقد قدمت صور الالتفات من حيث التبادل بين الضمائر ، أو التبادل بين الأفعال.

والفصل الثانى : تناول بلاغة التصوير ، وانقسم هذا الفصل إلى مبحثين: التصوير التشبيهى والتصوير المجازى، أما بالنسبة للتصوير التشبيهى فقد لاحظ الباحث أن الرمادى قد أكثر من التشبيه، فلا تخلو صفحة من صفحات الديوان إلا وكان التشبيه موجوداً ، متناولين فيها صور التشبيه من خلال الأداة أو من خلال طرفيه، أو غير ذلك من حيث الحسى والمعنوى.

كذلك فى المبحث الثانى تحدثنا فيه عن التصوير بالاستعارة أو الكناية أو المجاز المرسل وكان الرمادى قد استخدم التصوير وابتدع فيه ابتداعاً كبيراً ، قد يميل فى هذا التصوير إلى بعض الغموض، وهذا يحتاج من القارىء والمتلقى إلى إعمال العقل وإمعان النظر؛ حتى يستطيع أن يربط الأشياء بعضها ببعض ويستنتج الصورة التى يراها من وجهة نظره.

والفصل الثالث : وقد تحدثت فيه عن الإيقاع ومفهوم الإيقاع وأهميته فى الصورة الشعرية للنص، وكيف أن الشاعر استخدم نوعى الإيقاع،وهما: الإيقاع الداخلى والإيقاع الخارجى، أما الخارجى : فقد استخدم فيه الشاعر الوزن والقافية ومعهما المحسنات البديعية، وتحدثنا فى ذلك عن دلالة كل مظاهر الإيقاع الخارجى، وقد حلل الباحث طبيعة الأوزان وعدم ارتباطها حتمياً بغرض من الأغراض، والقافية ودورها فى صياغة القصيدة، أما المحسنات البديعية فقد حلل الباحث كل المظاهر الصوتية التى تلفت الانتباه وتثير الذهن، كان ذلك فى التصريع أو السجع أو حسن التقسيم وغير ذلك.

أما الإيقاع الداخلى : فيأتى من حيث الهمس أو الجهر مع الكلمات واستخدام حروف اللين بالإضافة إلى قدرة الرمادى على صنع موسيقى داخلية بين الضرب والعروض فى البيت الشعرى.

أما الفصل الرابع : فقد تناول البنية التأكيدية وقد تناول الباحث المبحث الأول "الإطناب" بكل صوره حيث استطاع الباحث أن يرصد صور الإطناب ويبدأ فى تفسيرها ودلالتها فى النص ، كل نوع على حدة، وصور الإطناب عديدة كالتكرير والترادف والتذييل والإيغال.

أما المبحث الثانى فكان عن الوسائل التأكيدية، وهى إما وسائل إفرادية كالحروف وتأثيرها فى توكيد الجملة أو البيت الشعرى، وقد دخلت الحروف على الجملة الاسمية أو الجملة الفعلية، وقد شرحنا دلالة دخولها على إحدى نَوْعَىْ الجملة، والجزء الثانى من المبحث الثانى كان أسلوب القصر وقد عرَّفناه، وتحدثنا عن وسائل القصر وصوره، وقد استخرجنا صور القصر بالنفى والاستثناء أو إنما، أو تقديم ما حقه التأخير ، أو حروف العطف، وقد رصد الباحث كل تلك الصور مستنبطاً دلالة كل صورة، ثم ختمت الرسالة بخاتمة، كتبت فيها بعض ما يستفاد من الدراسة ثم اردفتها بمعجم لمعانى الكلمات الصعبة، ثم فهرس بالمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

وقد اهتم الباحث فى خلال الرسالة أن يستخدم مبادىء المنهج الأسلوبى من الاحصاء للمباحث البلاغية مع تحويل الكم الرقمى إلى كيف دلالى، مع الاهتمام بالإحساس والتذوق فى فهم الأبيات دون لىّ عنق النص لإخراج معنى معين لا يتناسب مع النص وسياقه. ونظراً لكثرة الاستشهاد بأبيات الديوان فقد تم كتابة رقم القصيدة ثم رقم البيت على الجهة اليسرى من البيت الشعرى – والله المستعان –

مهادٌ أَولـــــىّ

أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى

هو شاعر أندلسي كبير ، ولد فى مطلع القرن الرابع الهجرى، كان قريباً معاصراً لشاعر العربية الأكبر المتنبى، وقد عمّر الرمادى طويلا، وعاش قرناً. اسمه: يوسف بن هارون الرمادى، البطليوسى، القرطبى، قال الحميدى: أظن أحد آبائه كان من رمادة، موضع بالمغرب، شاعر قرطبى. (Î)

وقد لقب الشاعر يوسف بن هارون بالرمادى ، وهذا اللقب فيه رأيان : " أحدهما أنه كان يلقب بالأسبانية بأبى جنيش كما يقول ابن بشكوال ، فعرّب هذا اللقب إلى الرمادى، والثانى: أن هناك قرية تسمى رمادة عدها ابن سعيد من قرى شلْب ، وعدها الحميدى من بلاد المغرب دون تحديد، وقطع ابن سعيد بنسبته إليها ، ورجح الحميدى أن يكون أحد آبائه منها". (Ï)

اختلف أسلافنا فى ذلك النسب، حيث ذهب ابن سعيد صاحب " المغرب فى حلى المغرب، إلى أن بنى هارون : قد ملكوا شنتمرية الغرب وتوراثوها" (Ð) **ولعل المرء يميل إلى أن الرمادى لم تكن سوى صفة تعنى الفقر، فصناعة الرماد كما تخيلها البعض لم تأت فى سيرة حياته، ولم ينبىء به شعره، وإنما نضح شعره بالمدح والتكسب بالشعر عند الملوك، فلو كان الرمادى ممن يملكون شيئاً لتحدث به شعره، وملأ به الديوان ، ولتحدث عن ذلك النسب الرفيع الذى ادعاه ابن سعيد، فحياته الخاصة لم يبن عنها بوضوح، إذ خلا ديوانه من إشارة أو تلميح بأى صورة من صور الغنى والثراء، بل كان ممن يتكسبون من مدح الأمراء ، والخلفاء، وينزلون منازل النابغة لدى النعمان بن المنذر، فشعره ينم عن المسغبة، والفقر وشدة الحاجة ، فقد كان يرتحل من مكان لآخر، ومن أمير إلى خليفة رغبة فى العطايا والهبات.**

---

(1) جذوة المقتبس للحميدى – الهيئة العامة للكتاب – 2008 ص 369

(Ï) عصر سيادة قرطبة : إحسان عباس ، دار الشروق ، ص186 وانظر: تاريخ الفكر الأندلسى لأنخل بالنثيا ترجمة حسين مؤنس ص68

(Ð) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد – تحقيق شوقى ضيف – دار المعارف : 14/2

أما النسب إلى بَطَلْيَوْس " فقد ذكره ابن حيان فى المقتبس أنه قد جاء من بطليوس، كما أشار إلى هذه التسمية أيضا – محمد عبد الله عنان بقوله: " يوسف بن هارون البطليوسى" واختفى البطليوسى يقصد أبا يوسف بن هارون.[1]

وبعض العلماء ذكروا أنه من بطليوس، وخاصة أنها فى الغرب أيضا، أما كونه "قرطبياً" فقد يكون ذلك بسبب تنقله إليها ، وعيشه فيها فترة طويلة من الزمن، خاصة أن التنقل من بلد لبلد كان أمراً ميسوراً، ومَنْ أحب الاستقرار فى مكان توطن به، ومن يتصفح "المغْرب" لابن سعيد يجد كثيراً من أهل الأندل س قد رحلوا إلى المشرق، ونزلوا فى مصر ، والشام ، والعراق ، وكذلك هناك كثيرون وفدوا من المشرق ، وحلوا بالأندلس واتخذوها محلا مختاراً.

أما الكنية المعروفة للرمادى له فهى : " أبو عمر" وعليها كل المصادر الأدبية، وقد شذ عن الجميع فى تلك الكنية ياقوت الحموى فى معجمه، إذ خرج علينا بكنية أخرى هى: "أبو بكر" فقال: يوسف بن هارون أبو بكر الكندى المعروف بالرمادى القرطبى.[2]

وعلى الرغم من المجيء بتلك الكنية إلا أنه عاد فأشار إلى كنيته الأصلية التى اشتهر بها وهى " أبو عمر"، فقال: " مات أبو عمر فى سنة ثلاث وأربعمائة".[3]

وعلى ذلك فإن يوسف بن هارون البطليوسى، القرطبى، قد استقر فى قرطبة منارة الأندلس، وهو ذو الأصول اليمنية: " حتى كان كثير من شيوخ الأدب فى وقته يقولون : "فتح الشعر بكندة وختم بكندة، يعنون امرأ القيس، والمتنبى ، ويوسف بن هارون".[4]

ونلاحظ أن يوسف بن هارون كان قريباً من عصر المتنبى، وإن كان يوسف قد عمر طويلا بعده، حيث عاش مائة عام ، وقد لقبوه بمتنبى المغرب مثله مثل ابن دراج القسْطَلىَّ، لما لهما من مقدرة شعرية كبيرة.

---

(1) دولة الاسلام فى الاندلس: محمد عبدالله عنان – الهيئة العامة للكتاب – 49/2

(2) معجم الأدباء لياقوت الحموى 650/5

(3) معجم الأدباء للحموى 650/5

(4) جذوة المقتبس للحميدى ، الهيئة العامة للكتاب ، 2008 ، ص369

وقد ذكر ابن سعيد الاندلسى أن أميراً من أمراء الأندلس من أمراء ذى النون الطليطليين قرأ على الشاعر الرمادى وهو الأمير أرقم بن عبد الرحمن إسماعيل بن موسى بن ذى النون ".[Õ]

وتتلمذ على يد أستاذه وشيخه أبى بكر بن هذيل الكفيف، عالم أدباء الأندلس فى عصره، ويمثل ابن هذيل الحلقة التى تصل بين ابن عبد ربه والرمادى ، لأنه تأثر بالأول ، وأثر فى الثانى فى المذهب الشعرى. [Ö]

وطبقت شهرته آفاق الأندلس فعدوه متنبى المغرب هو وابن دراج القسطلى، حيث تكسب بالشعر مرتزقاً به، مقيما ببيوت الأمراء والخلفاء ، كى ينال العطاء، " تكسب الرمادى بالشعر وكان شاعر الحاكم المستنصر (366/350) فعلت منزلته، وكذلك قصد بشعره عبدالرحمن بن محمد التجيبى فى سرقسطة،وفرحون بن عبد الله فى شنتيرين الغرب.[ÎÍ]

كان الرمادى شاعراً جوالاً ، يجول بين أمير وآخر ، إذ أصبح يعيش فى كنف أميره عيشة الترف ، يلزم جانبهم من سرقسطة فى الشرق – وفيها رأى حبه لخلوة – إلى شنترين فى غرب الأندل س أيام رحلاته " إلى ابن الوابلة فرحون بن عبد الله حين كان واليا على شنترين للحكم المستنصر".[ÎÎ]

كان يأخذ من هبات الخليفة المستنصر ليتنعم بها، وكذلك كان يفعل مع أمراء الأندلس الآخرين. وفى رأى الدكتور إحسان عباس أن الرمادى قد تتلمذ على يد شيخه أبى بكر بن هذيل الكفيف، لكن إذا علمنا أن تاريخ مولد الشيخ عام 305هـ فمعنى ذلك أن الرمادى يكبره بعامين، وهذا الفارق قد لا يجعله – بطبيعة الحال – أستاذاً له.

وكذلك فقد اتفق جل العلماء على سنة ثلاث وثلاثمائة زمنا لمولده، إلا أن الأستاذ عمر فروخ قد خرج برأي مخالف دون سند حقيقى [ÎÏ] يؤكد ما زعم إليه من تاريخ مولده،

(Õ) المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد تحقيق شوقى ضيف، دار المعارف ، 14/2هـ

(Ö) تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة لاحسان عباس، دار الشروق، 186، 187

(ÎÍ) تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ: دار العلم للملايين، ط 3 ،1992 ، ص 340

(ÎÎ) يوسف بن هارون دراسة فى سيرته، فورار محمد ، فكر وإبداع ، جـ 37، 2007، ص64

(ÎÏ)حيث أشار إلى أن الرمادى "ولد فى قرطبة سنة926/314م" انظر تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ 339/5

ولعل الرواية التى تشير إلى قدوم الشاعر واستقباله لأستاذه أبى على القالى بقصيدة "مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى" عام 330هـ تمثل نضجاً فنيا تجعلنا نستبعد أن يقولها الشاعر فى سن باكرة ، وعمره ستة عشر عاماً، ونميل إلى ما ذهب إليه الدكتور أحمد هيكل فى كتابه "من الفتح إلى سقوط الخلافة " من أن مولده 303هـ [1]، ويكون عمره فى تلك الفترة سبعا وعشرين سنة.

وقد أشار إلى تلك الفكرة الدكتور الطاهر مكى إلى أن الرمادى قد توفى فى 413هـ : 1022م انسياقاً وراء رأى الأستاذ عمر فروخ، بالرغم من أن الأستاذين الجليلين لم يذكرا سنداً ، أو رواية لتاريخ وفاته.[2]

والثابت أيضا من روايات العلماء ومصادرهم هو أن الرمادى توفى سنة 403هـ، وقد أشار الحميدى فى جذوته بقوله: " وقد ظل الرمادى على قيد الحياة ؛ لأنه شهد الفتنة التى حدثت مع بداية القرن الخامس الهجرى، ومات فى أيام تلك الفتنة ".[3]

كان الرمادى معاقراً للخمر شغوفا بها ، لا يعبأ بشيء قدر حبه للخمر ، وقد أعلن تحديه للخليفة المستنصر، ورفضه لقرار الخليفة بقطع أشجار العنب من الأندلس [4] حيث يقول(3/45 ،4، 5) : (وافر)

أعشاقَ المدَامَة إن جزعتم ∴ لفُرْقتها فليس مكان صبر

سعى طُلابُكم حتى أُرِيقَتْ ∴ دماءٌ فوقَ وجهِ الأرضِ تجرى

تَضَوَّع عَرْفُها شرقا وغربا ∴ وطَبَّقَ أُفْقَ قرطبةٍ بعطر [5]

وقال الدكتور شوقى ضيف: " ولا ندرى أكان ينظم فى ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأقرانه من المشارقة [6]، وبطبيعة الحال فإن جو الحرية فى الأندلس ،

---

(1) انظر ما يؤيد ذلك فى : الجذوة للحميدى: 373 ومعجم الأدباء للحموى: 5 /650

(2) طوق الحماقة فى الألفة والألاف لابن حزم ، تحقيق الطاهر مكى، دار الهلال –ط2– 1994– هامش 3 ص 124

(3) انظر الجذوة للحميدى :373 وانظر دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبدالله عنان :703

(4) يوسف بن هارون : لمحمد بن فورار، ص64

(5) الديوان: تحقيق زهير جرار، بيروت –ط1– 1979، ص72، 73

(6) عصر الدول والإمارات : الأندلس: شوقى ضيف ، دار المعارف –ط2، ص278

وانتشار الغزل بالغلمان ، وانتشار مجالس اللهو والطرب، ووجود القيان والإماء، كل ذلك لابد أن يجعله يتحدث حديثاً حقيقياً لا محاكاة ،ولا تشبها بأى شاعر من شعراء الغزل أو معاقراً الخمر وإن كان هذا لا يمنع تأثره بهذا المنحى فى قول الشعر.

كذلك نراه يقول (8/125): (طويل)

وما بى فخر بالفجور وإنما ∴ نصيب فجورى الرشف والشفتان [ÎÖ]

يقول الدكتور شوقى ضيف قائلاً: "وأكبر الظن أنه لم يكن ماجناً" [ÏÍ] **فهل الدكتور شوقى ضيف يرى عاشقاً للخمر قد دخل السجن بسببها، وعارض فيها الحكم المستنصر، لايكون المجون والتهتك سبيله والسكر ديدنه ؟**

إن جو الحرية التى كفلها خلفاء الأندلس جعلت الشعراء يفعلون ما يشاءون ، فى أى وقت وفى أى مكان، ويرى الدكتور محمود الربيعى أن : " اللهو هو الرمز المعادل لتمرد الإنسان فى وجه الحياة بغية تنشيط الإحساس بالعنصر المقابل للعنصر المأساوى المستقر أبداً فيها، كما قد تصبح الخمر رمزاً لملجأ النسيان الذى يلوذ به الإنسان من فداحة الإحساس بهذا الوجه نفسه". [ÏÎ]

وقد يكون هذا الأمر منطبقاً على الرمادى؛ لأن الرمادى لم يعش مترفاً ثرياً، وإنما كان شاعراً جوالاً، يعيش فى كنف أميره، ويأخذ من عطائه ما يحتاج إليه؛ لذا عاقر الخمر وأدمنها، وعارض بها أكبر رأس فى عصر الخلافة، وهو الخليفة الحكم المستنصر؛ وذلك كى يعالج الوجه المأساوى الذى يحياه الشاعر من العوز والفاقة، إضافة إلى جو الحرية والنعيم اللذين أضعفا العقيدة عنده، وتبذَّل دون خوف من عقاب الله، أو خليفة من الخلفاء.

لقد بالغ الأندلسيون فى وصف الخمر وصفاً كبيراً، وهذا يؤكد ما ذهب إليه إيليا جاوى حين قال: إن الشعر الأندلسي بخلاف ما شاع عنه، حميم الصلة بواقع الشعر العربى، وأنه لم يكد يتجدد إلا تجدداً خارجياً فى القافية والميل إلى المبالغة. [ÏÏ]

(ÎÖ) الديوان: تحقيق زهير جرار ، بيروت ، ط1 – 1979 ، ص128

(ÏÍ) عصر الدول والإمارات: الأندلس شوقى ضيف: 278

(ÏÎ) قراءة الشعر للدكتور محمود الربيعى : 129

(ÏÏ) فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى لإيليا حاوى – دار الكتاب اللبنانى- بيروت1981 ص 240/239

وقد أعجب الناس بالأندلس – من علماء ومفكرين – إعجاباً كبيراً وما فيها من علم وحضارة، "وما هى فيه من رغد العيش ، وسعته ، وكثرته ، ووفور الجباية ، وعظم المرافق: المياه الجارية والشجر".(ÏÐ)

إن السبب وراء هذا الاستطراد هو توكيد الفكرة التى حاورنا فيها الدكتور شوقى من أن وصف الخمر عند الرمادى لم يكن أمراً ظاهرياً، أو سيراً على نهج شعراء المشرق تقليداً لخطاهم، وإنما لأن شاعرنا أقبل على الخمر يعبّ منها، وما أكثر القصائد فى ديوانه التى يبث فيها حبه وغرامه للخمر.

الحياة بجوانبها المختلفة مستهل القرن الرابع والخامس الهجريين

إذا كان موضوع دراستنا دراسة فنية لديوان الرمادى، فقد يمثل تعرضنا – لبعض القضايا فى تاريخ الأدب– أمراَ مخالفا لطبيعية الدراسة الفنية، فالمنهج الذى يدرس بنية النص الأصلي ة لا علاقة له بتلك القضايا المتنوعة "الغيرية" على النص من أحوال اجتماعية، وسياسية، ودينية؛ وإذا جئنا بتلك القضايا فما هو إلا من باب معرفة الماضى بتفاصيله المتنوعة، فلا يمكن للمرء أن ينفصل انفصالاً تاماً عن ماضيه!.

لقد بدأ القرن الرابع بحكم عبد الرحمن الثالث (300هـ / 350هـ)،كان حكمه "زاهراً كعهده، وأعلن نفسه خليفة ، ولقب بأمير المؤمنين، وكان الناصر أعظم ملوك الأندل س ، وأول خليفة فيها، وبلغت الأندل س فى زمنه أوج مجدها، ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة، ونافست قرطبةُ بغدادَ فى أعظم أيامها، فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون ، وكان فيها مائة وثلاثة عشر ألف جامع، وثلاثمائة حمّام ، وثمان وعشرون ضاحية.. وبنى الناصر على مقربة من عاصمة ملكه قرطبة قصراً أسماه " الزهراء" باسم جارية له كانت تمنَّت عليه أن يبنى لها قصراً فكانت الزهراء".(ÏÑ)

(ÏÐ) من تاريخ الأدب الأندلسى: الطاهر مكى– دار الآداب – ط3 – 1993

(24) فى الأدب الأندلسى،جودت الركابى، دمشق 1955، ص21،22 وانظر : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية لفون شاك ترجمة الطاهر مكى، – دار المعارف،ط2: 1985،148ص44 وانظر:دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادى، مؤسسة شباب الجامعة، ص64

وإذ بلغ عدد العاملين فى القصور من خدم وحشم "ثلاثة عشر ألف وسبعمائة وخمسين فتى" [ÏÒ] وهذا يوضح مدى الرخاء والنعيم الذى عاش فيه الناس فى تلك الفترة. ثم تولى الحَكم المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد ظل فى الحكم ست عشرة سنة (350 : 366)، كان حازم الرأى، حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة.[ÏÓ]

وكان الحكم المستنصر " أشد غيرة من أسلافه، وأكثر تحمساً ؛ فرعى العلم وحمى الثقافة، وأشاعهما بين قومه، وقد انتشرت المدارس الجيدة قبله ، وشاعت القراءة والكتابة فى الأندلس بعامة.. ومع ذلك كله آمن الحَكمُ بأن شعبه فى حاجة إلى المزيد منها ، فأنشأ الكثير من المدارس، وأقام فى العاصمة وحدها سبعا وعشرين مدرسة، يتلقى فيها أبناء الفقراء التعليم مجاناً، ويتردد الشباب فى أعداد وفيرة على المعاهد العالية الملحقة بالمساجد فى قرطبة وإشبيلية، وطليطلة، وبلنسية ، والمرية، ومالقة، وجيان ". [ÏÔ]

هذه الأخبار توحى بمدى التقدم والرقى الحضارى والثقافى للحضارة الإسلامية فى الأندلس، لحظة أن كانت أوربا تعانى من الفقر والمرض، والجهل والتعصب الذى كان يطبق على أوربا ، فقد اعتنى الخلفاء– ومنهم عبد الرحمن الخليفة، وابنه الحكم المستنصر – بالحضارة والثقافة اعتناءً كبيراً ، أضحت فيه قرطبة مركزاً حضارياً لا غنى عنه لأى دارس من أوربا.

"وقد أعطانا المؤرخون أمثال ابن حيان وابن خلدون وصفا تفصيليا للحفلات التى كانت تقام فى قصر قرطبة، أو قصر الزهراء بمناسبة استقبال ملوك أسبانيا، أو ملوك وزعماء العدوة المغربية، وهى كلها تعبر عما كان يمتاز به عصر الخلافة من قوة وتقدم ورخاء" [ÏÕ] وقد توفى الحكم المستنصر عام 366 هـ،وتولى الحكم من بعده ابنه هشام، ولم يكن حازما كحزم أبيه وجده، بل إن محمد بن أبى عامر

(ÏÒ) الفن العربى فى اسبانيا وصقلية لفون شاك، ص64

(ÏÓ) فى الأدب الأندلسى، جودت الركابى، دمشق، 1955، ص23 وانظر : قرطبة فى العصر الإسلامى، أحمد فكرى ، مؤسسة شباب الجامعة ص 97

(ÏÔ) من تاريخ الأدب الأندلسى، الطاهر مكى ، دار الآدارب – ط3 – 1993

(ÏÕ) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس – أحمد مختار العبادى– مؤسسة شباب الجامعة ص64

الذى تولى رعاية هشام، قد تسلّم زمام الأمور بيده، وأصبح ملكا على الأندلس ولقب نفسه بالحاجب المنصور، ودُعِى له فى المنابر، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة.[ÏÖ]

لكن الأمر بين الساسة لايدوم له قرار، فقد دبَّ خلاف بين المنصور ورئيس وزرائه الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، فانتهز فرصة العداء الذى نشأ بين المصحفى وبين رؤساء الصقالبة عقب مقتل المغيرة بن عبد الرحمن وأخذ يوقع بين الفريقين ، واستطاع المنصور بهذه الطريقة أن يشتت قوات الصقالبة ويخرجهم عن القصر.[ÐÍ]

وكان بداية الصراع على الملك هى بداية النهاية، هذه سنة الله تعالى فى أرضه، حيث استطاع الحاجب المنصور أن يهزم عدوه " فأسقط المصحفى عن الوزارة وعزل بنيه، واتهمهم بالتبديد وسوء التصرف".[ÐÎ]

وسَجَن المنصور جعفر المصحفى ، فأضحى سجيناً ذليلا، بعد أن كان رئيساً لوزرائه، " إلى حد انه كان يأخذ جعفراً معه فى الغزوات [ÐÏ] ، وقد أسلمه إلى أهله فى أقبح صورة، وقيل: قُتِل خنقاً" [ÐÐ] ولم يخرج المصحفى من سجنه رغم كل التوسلات التى قام بها المصحفى؛ حتى استعطفه المصحفى فى أبيات شعر من جميل الاعتذار، يقول : (بسيط)

هبنى أسأتُ فأين العفو والكرم ∴ إذا قادنى نحوك الإذعان والندمُ

يا خير من مدت الأيدى إليه أما ∴ ترثى لشيخ نعاه عندك القلـمُ

بالغتَ فى السخط فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ ∴ إن الملوكَ إذا ما استُرحِموا رحِموا [ÐÑ]

وبرغم كل ذلك إلا أنه أبقاه فى السجن ، ومات جعفر المصحفى فى العام الثانى والسبعين من القرن الرابع الهجرى ، "وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر

(ÏÖ) فى الأدب الأندلسي ، جودت الركابى ، ص24

(ÐÍ) فى تاريخ المغرب والأندلس للدكتور أحمد مختار ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص24

(ÐÎ) من صور البطولات العربية والأجنبية، د. حسين مؤنس، دار الرشاد ، ط3 ، 1413هـ/1993م

(ÐÏ) الحلة السيراء لابن الأبار – 259/1

(ÐÐ) الحلة السيراء لابن الأبار – 259/1

(ÐÑ) الحلة السيراء لابن الأبار – 259/1

المنصور دون أن تخفى جرائمه، ومعظمها يصفه بالتقى، إذ " إن الجهاد كان قرة عينه" [1]
وقد مات المنصور متأثراً بجراحه أثناء قفوله من معركة على إمارة (قشتالة) ، وتستند هذه الرواية على مثل شعبى يقول "فى قلعة النور مات المنصور وفقد طبله". [2]

يصطرع العالم الآن – شرقاً وغرباً – حول فكرة صراع الحضارات وتصادمها ، فإذا رجعنا إلى الفكر الأندلسى فسنجد أن الإسلام فى الأندلس – قد بلغ شأواً عظيماً من التسامح وقبول الآخر، وحسن معاملة الآخرين، لقد كانت الروح الإسلامية تسمح بتبادل الآراء وتلاقى الأفكار، وتقبل الآخر تقبلاً حقيقياً على أرض الواقع والسلوك.

والدليل على ذلك أنْ " كان البرو القرطبى هذا راهباً شديد التعصب ، زاد من عصبيته أن رأى أبناء النصارى يقبلون على اللغة العربية دراسة واستيعاباً واتقاناً، وهم فى الوقت نفسه يعزفون عن القراءة اللاتيني ة، ومن ثم يهملون قراءة الكتب المقدسة لدينهم، فعمد إلى هذا المركب الخشن بتشجيع قومه على الطعن فى الإسلام ورسوله وكتابه". [3]

إن ازدهار الحضارة الإسلامية وقوتها فى الأندلس لم يؤثر فيها تعصب مثل هذا الراهب أو غيره، إن فعل هذا الراهب قَابَلَه تسامح ، ولين معاشرة، وحرية فى تلقى العلم وتبادل الأفكار، وقد رعت الحضارة الإسلامية التسامح وحسن المعايشة مع الآخر، وذلك رغم ما يدعيه الآخرون – الآن – من التصادم والتناحر!

وكانت حياة بائسة، مضطربة، كالحياة التى كان يعيشها الناس فى تلك الفترة القلقة من تاريخ الأندلس، فبعد أن مات المنصور عام 392هـ [4] وحتى وفاة يوسف بن هارون سنة 403هـ، هذه السنوات الإحدى عشرة كانت سنوات فتنة وبلاء ، فقد اشتدت الحرب بحثا عن السلطان، وتعاقب على هشام بن الحكم المستنصر عدد من الطامعين الذين سلبوا الحكم منه، إلا أن الحُكم عاد إليه مرة أخرى، بعد أن قَتَل المهدى محمد بن هشام، وعادت قرطبة إلى هشام المؤيد، حيث استمر البرابرة فى حصار قرطبة، وقد نزل هشام

---

[1] معالم المغرب والأندلس : حسين مؤنس ، ص404

[2] فى تاريخ المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادى: ص 245

[3] المغرب والأندلس: د.مصطفى الشكعة، دار الكتاب المصرى واللبناني، ط1 ،147هـ/1987م ، ص69

[4] لابن خلدون رأى مخالف فى سنة مقتل المنصور وهو 492، انظر تاريخ ابن خلدون 321/4